مجلة الرائد

العدد : ٢٤٥ الموافق في جمادى الآخر ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٨ ميلادي

عنوان المقال : من أجل الفهم والعمل والتغيير	الكاتب : الأستاذ عصام العطار

مَنْ سَرَقَ المصحف ؟

لا تكاد تلقى أحداً من العرب والمسلمين هذه الأيام إلاّ وتسمع منه مُرَّ الشكوى مما آلت إليه حالُهم من الضعف والعجز والتخلُّف ، ومن الفرقة والهزيمة والهوان

الكبارُ يشتكون والصغارُ يشتكون

المثقفونَ يشتكون والعوامُّ يشتكون

المحكومونَ يشتكون والحكّامُ يشتكون

كلٌّ من تلقاه يشتكي

كلٌّ من تقرأه يشتكي

كلٌّ من تسمعه يشتكي

كلُّهم كلُّهم يشتكون ، فمن هو المسؤول عما يُشتكَى منه هذه الشكوى ؟

في بعض كُتُبِ تُراثِنا الأدبي : أنَّ العالم العامل الزاهد مالك بن دينار فقد مصحفه في مجلسه الذي كان يعظ الناس فيه ، ويفسر لهم فيه القرآن ، فرفع رأسه متسائلاً عن مصحفه المسروق ، فرأى الناس كلّهم يبكون من التأثر والخشوع ، فقال لهم هذه الكلمة المُعَبِّرة :

- « **كُلُّكُم يبكي فمن سرق المصحف ؟!** »

ونحن كلُّنا يبكي - أو يزعم أنّه يبكي - ويشتكي مما آلت إليه حالنا الآن على كلّ صعيد ، فمن منا سرق المصحف يا تُرى ؟ ومن هو المسؤول عما نعانيه من الفشل والبؤس والهوان ؟ كلُّ واحدٍ منّا يُلقي المسؤولية على سواه ، ولا يكاد يعترف بذنب أو قصور

مجلة الرائد

العدد : ٢٤٥ الموافق في جمادى الآخر ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٨ ميلادي

عنوان المقال : من أجل الفهم والعمل والتغيير	الكاتب : الأستاذ عصام العطار

عجيج كعجيج النساء ولا عزم

ومالكُ بن دينار يذكّرنا بحبْرِ الأمة في زمنِه التابعيِّ العظيم : الحسن البَصْرِيّ ، وكلمةُ مالك : « كلُّكم يبكي فمن سرق المصحف ؟! » تذكّرنا بكلمة الحسن ، وقد غلب على الناس في مجلسه التأثُّرُ والانفعال ، وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب ، فقال وهو يستحضر في نفسه ما انتشر في المجتمع من الظلم والفساد ، وقِلَّة من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويسعى لتغييره بما يستطيع :

« **عَجِيجٌ كعجيج النِّساءِ ولا عَزْم ، وخُدْعَةٌ كخُدعَةِ إخْوَةِ يوسُف جاءوا أباهم عِشاءً يبكون** »

أيْ : بكاءٌ وصُراخٌ ، كما تفعل النساءُ في المآتم ، ولا عزمَ صادقاً على إزالة أسباب الألم والحزن والشكوى ، وعلى تغيير الواقع المرير

بل إن الحسن البصريّ - رحمه اللّه - يُحمِّلُ هؤلاء الذين يبكون ويصرخون ، كما يُحَمِّلُ غيرهم ، مسؤولية ما يشتكون منه ، فلو أنهم نهضوا جميعاً بواجبهم في بناء مجتمعهم ، وفي مجابهة الظلم والفساد ، لما وصل بهم الأمر ، ووصل بالبلاد والعباد ، إلى الحالة التي يَضجّون بالشكاية منها والبكاء ، فهم بالتالي مسؤولون بسلبيّتهم - إن لم يكن بمساهمتهم أيضاً - عن هذه الحال ، وهو يُشَبِّهُ الشاكين الباكين بإخوة يوسُف عليه السلام : يبكون عند أبيهم على أخيهم يوسُف ، وهم ألقوه بأيديهم في البئر ، ويَدَّعُونَ كَذباً وتضليلاً وتنصُّلاً من المسؤولية أنه قد أكله الذئب

وبَعْدُ أيها الإخوة

وبعد - أيها الإخوة - ألا ينطبق ما قاله الحسن البصريّ في القرن الأول أو الثاني للهجرة [i] علينا هذه الأيام ، ونحن نبكي ونشتكي ونَضِجُّ بالشكوى والبكاء ، أو نهدّد ونتوعّد ونرفع أصواتنا بالتهديد والوعيد ، ونتكلّم ونتكلّم ، ونَزْحَمُ الأُفقَ بالكلام الفارغ الذي يخلو من كلّ مدلول عمليّ ، ومن كلّ جدّية وأثر إيجابي ، حتى قال قائلون : إن العرب والمسلمين ظاهرةٌ صوتية لا أكثر ولا أقلّ ، ظاهرةٌ صوتية لا يُؤْبَهُ لها ، ولا يُلْتَفَت إليها ، وليس لها أيُّ مصداقية ورصيد

مجلة الرائد

العدد : ٢٤٥ الموافق في جمادى الآخر ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٨ ميلادي

عنوان المقال : من أجل الفهم والعمل والتغيير	الكاتب : الأستاذ عصام العطار

ألا ينطبق علينا ، أو يكادُ ينطبق علينا ، أيضاً قولُ الشاعر القديم الذي يصف ناساً حالُهم كحالنا ، وأقوالُهم وأفعالُهم كأقوالنا وأفعالنا :

إذا نَهَضُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسَنُوا ... وَلَكِنَّ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعلُ

وقولُ الشاعر الآخر ، وكأنّه كان يُصَوِّر مواقفنا من أهلنا وأحبابنا وأبطالنا العظماء الأفذاذ الصابرين المحتسبين في فلسطين ، الذين تتسكب كل يوم دماؤهم ، وتُنْهَبُ أو تُدَمّر أرضُهم وبيوتُهم وأموالُهم ، ولا يجدون عندنا إلاّ فارغَ القول ، وكاذب الوعد ، وما نُعَلِّلُهم به من الألاعيب والأباطيل والسراب الخدّاع :

كُسَالَى إذَا لاَقَيْتَهُمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّى بِهِ الْمَحْرُوبُ [ii] وَمْوَ بَلاَءُ

وطالما تذكّرت وأنا أسمع في سنوات ماضيات تصريحات بعض حكامنا وزعمائنا الغابرين والشاهدين ، وأرى مواقفهم وأعمالهم ، مثلَنا العربيّ المشهور :

« **أَسْمَعُ جَعْجَعَةً وَلاَ أرى طِحْناً** » [iii]

مع أنّ قول الإنسان ما لا يعمل من أشدِّ ما يُنكره ديننا ، ويمقُتُه ربُّنا : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ** } [الصف : ٢-٣]

واللّه تعالى يقول : { **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } [التوبة : ١٠٥]

وإلى العدد المقبل من الرائد إن شاء اللّه

---

(١) ولد الحسن البصريّ سنة ٢١ وتوفيَ سنة ١١٠هـ .
(٢) المحروب : من طُعِن بحرْبة ، ومن سُلِبَ جميعُ ما يملك .
(٣) جَعْجَعَ الجمل : اشتدّ هديره ، وجعجعت الرَّحى : صوَّتت . ويُضْرَبُ هذا المثل لمن يعِد ولا يفي ، ولمن يُكثر الكلام ولا يعمل .